الوحدة القومية
من خلال اللغة والفن

دكتور عفيف بهنسي (ج.ع.س)

لا شك ان الفكرة ميزة الوجود الانساني ، بل هو شرط هذا الوجود كما يقول ديكارت . ولكن هذا الفكر لا يتحقق الا عن طريق التعبير ، بواسطة رموز ، واسهل هذه الرموز واقربها الى سيطرة الفكر هو اللفظ . وقد يكون هذا اللفظ حدسيا فى نشأته مرتبطا بالطبيعة والانسان ارتباطا عضويا ، وقد يكون توليديا او تركيبيا مأخوذا عن مقياس او وفقا لقاعدة . وجميع اللغات تتكون عن السببين معا . وقد يكون سبب غالبا على سبب ، كما هو الامر فى **اللغة العربية** التي **تبدو حدسية مرتبطة بالمعنى ارتباطا عضويا .**

هذا الارتباط العضوي بين اللغة العربية وبين الانسان العربي يفسر جانبا هاما من مفهوم القومية العربية . فاذا كانت اللغة تعبر عن الحدوس الاولى ازاء الوجود الانساني والعالم الطبيعي ، فان انتقال هذه اللغة يعني انتقال هذه الحدوس والاحساسات الاولية . ومن هنا كان انتشار اللغة العربية انتشارا للقومية العربية ذاتها ، اى ان **اللغة العربية هي العنصر الاساسي للقومية العربية** ، واشتراك مجموعة من الشعوب بلغة واحدة كاللغة العربية ، هو اشتراك قومى ، يقوم على وحدة الحدوس الاولى ازاء مفهوم الانسان والطبيعة ، وبمعنى آخر ، يقوم على الوحدة العضوية بين اللغة المشتركة وبين فكر موحد ، تقوم اللغة بدورها بتحديد اطاره القومي والانساني . واننا لنرى ذلك واضحا لدى الامم التي انتشرت فيها اللغة العربية بعد الاسلام ، فلقد اندمجت هذه الامم بالفكر العربي ، وبالقومية العربية اندماجا كاملا او جزئيا ، بحسب انتشار اللغة العربية ذاتها .

واذا كان اللفظ صيغة لحدس تبلور فى كلمة ذات اشتقاقات حسب الجنس والوظيفة والعدد ، فان الكتابة صيغة مطابقة لما تنقله حاسة النظر وهو الرسم اولا ، ثم هي الهيروغليف واخيرا هي مجموعة الحروف المحورة عن الرسوم او المتطورة عن اصل بدائي . وسواء اكانت الكتابة رسما او كانت رمزا بدائيا ، فانها ايضا تصدر عن الحدس الاولى لاشكال الاشياء والافكار بحسب تصورها ، ولكن هذا سيقودنا الى القول ، ان منشأ اللغة والفن واحد ، أي ان **اللغة هي فن وان الفن هو لغة .**

بين اللغةِ العربية والفن العربي

يرى كروتشه (1) ان فلسفة اللغة وفلسفة الفن واحدة ذلك لان كلا من الفن واللغة موضوعه التعبير ، والتعبير الانساني واحد وان اختلفت وسائله . فجميعنا شعراء ما دام الفن حدسا ، والحدس تعبيرا والتعبير لغة ، واللغة بمعناها الواسع شعرا . **فالشعر هو اللغة الاصلية للجنس البشري** . والواقع ان كلمة الشعر

(1) كروتشه ـ علم الجمال . ترجمة نزيه الحكيم .

بحسب اصلها اليوناني تعني الابداع بصورة عامة ، وان جميع الفنون من عمارة وتصوير ونحت وموسيقى هي شعر كما يرى هيدغر(1)،الذي يضيف قائلا: «ان الشعر لغة ، لانهما كلاهما يسعيان الى التجلي والانتشار او الى العلانية ولان اللغة هي المظهر الأسهل لخروج الانسان الى عالم العلانية ورفضه لكل امتزاج بالوجود المختلط المختفي . فان الفن بهذا المعنى ، هو صورة من صور اللغة » . فالمعاني هي الأساس وهي تخرج الى عالم العلانية عن طريق الرمز اللفظي او التصويري ، عن طريق اللغة او الفن . وبمعنى آخر **ان افكارنا ومعاني الاشياء لا تتجلى فقط عن طريق اللغة ، بل عن طرق اخرى اهمها الفن** ، لان ثمة اشياء وافكارا لا يمكن التعبير عنها باللغة بل عن طريق الفن ، فاللوحة او اللحن لا ينقلان الينا الشكل التقني وحسب ، بل الدلالات المشخصة او المجردة لأفكار واشياء مشخصة او مجردة .

ومما لا شك فيه ان اللغة تعبر عن اكثر الاشياء تشخيصا وتحديدا ، اما الفن فانه يعبر عن اكثر الأشياء تعميما واطلاقا ، ولهذا فان اللغة تبقى مستقلة عن مضمونها . اما الفن فانه يمتزج بمضمونه . اي ان الفن قد يكون اكثر وضوحا فى نقل الشخصية القومية لان اللغة تبقى قاصرة عن التعبير الدقيق عن الفكر والوجدان القومي . اما الفن فانه قادر ان يشخص مباشرة هذا الفكر وهذا الوجدان عن طريق رموزه التي تقرأ بواسطة الفكر والوجدان .

هذه الصفة التاريخية والحضارية للغة والفن تجعلهما ابرز العناصر المقومة للوجود القومي . **فاذا تساءلنا عن ابعاد القومية العربية ، فان الفن واللغة سيشاركان بدقة فى تحديد هذه الابعاد .** فحيثما انتشرت اللغة العربية وحيثما انتشر الفن العربي واصبح تقليدا وارثا ، تمتد القومية العربية .

ودلائل اللغة والفن فى تحديد السمة القومية ، اقوى واثبت من الدلائل السياسية . فالوحدة اللغوية والفنية هي طابع قومي ثابت فى وجدان الأمة وشخصيتها ، ولا يمكن للتغييرات السياسية ان تؤثر على هذه الوحدة . بل ان هذه الوحدة هي الاساس الذي تقوم عليه الوحدات السياسية .

وحدة اللغة العربية عبر الزمان

بقى ان نتساءل هل وحدة اللغة العربية والفن العربي وهي المعبرة عن وحدة الشخصية العربية صحيحة عبر التاريخ ؟ وما هي عوامل تفكيك هذه الوحدة ؟

ما زالت اللغة العربية اقوى مظاهر السمات العربية واقوى رابط يربط المحيط بالخليج ويوحد افكار العرب وآمالهم ونضالهم ، وهي متينة غنية ذات تراث عريق لا ينضب . وعلى الرغم من محاولات التتريك فى العهد العثماني ، وعلى الرغم من الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها الارض العربية فى عهود الانتداب والاستعمار ، ومحاولة فرنسة الفكر واللسان فى المغرب العربي ، ورغم التخلف الفكري والاجتماعي الذي اصاب الامة العربية ، نرى ان **اللغة العربية بقيت صامدة يدعمها القرآن الكريم ، والتراث الادبي العربي** وجهود المجامع ودور المجلات والمدارس العربية والحركات القومية التي اعطت اللغة اهمية اولى ليقظة الوجود العربي . وهكذا نرى اللغة العربية اليوم تعيش فى ظروف مواتية وقد ابلت من اكثر امراضها التي توارثتها عبر تقلبات التاريخ . وانها **فى طريقها الآن للقضاء على اللهجات المحلية الركيكة ، وان ارتفاع مستوى الثقافة وانتشار وسائل الاعلام كالمذياع والتلفاز ، سيكون له اثر كبير فى تصفية اللهجات العامية التي تختزن الفكر العامي البدائي وتؤثر بذلك على حركة التقدم الحضاري والقومي .**

وحدة الفن العربي

اما وحدة الفن العربي ، فانها ماثلة باعتراف جميع المؤرخين ، وهي وحدة داخلية تكمن فى شخصية الفن العربي ، ووحدة جغرافية . ونحن نستطيع ان نتميز هذه الوحدة الداخلية فى اي عمل فني سواء اكان اناء او سيفا او رداء مطرزا او فسقية او مئذنة ، ولنسمع مايقوله جورج مارسيه عن هذه الوحدة (2) .

« لنتخيل تجربة : لديك ساعة فراغ ، ولتزجية الوقت او لمجرد التسلي باستعراض صور جميلة امام عينيك ، تقوم بتصفح مجموعة صور لآثار ترجع الى

(1) Heidegger : « Chemins qui mènent nulle part », Gallimard, 1962.

(2) جورج مارسيه : الفن الاسلامي ـ ترجمه د. عفيف بهنسي ـ دمشق 1968 ـ المقدمة

مختلف الفنون . وتتتالى التماثيل الاغريقية بعد اللوحات الجدارية المثونة على المقابر المصرية والستر المطروزة اليابانية بعد النقوش النافرة فى المعابد الهندوسية .

وفيما انت تقلب هذه الأوراق يقع بصرك بصورة متتابعة على لوحة جصية منحوتة فى احدى قاعات الحمراء . ثم على صفحة من قرآن كريم مزين من مصر، وتقع عيناك اخيرا على زخرفة منقوشة على فسقية نحاسية فارسية ، وحتى لو لم يكن بمقدورك بعد ذلك ان تقرر البلد الذي أبدع فيه كل من هذه الاعمال ، فانك لا تميل ولو لبرهة وجيزة الى نسبة اي منها الى فن غريب عن البلاد الاسلامية » .

اما الوحدة الجغرافية فهي تتمثل فى وحدة الطراز على اختلاف الاقاليم والمناطق ، وعلى اختلاف السلطة الحكومية . ولكن هذا لم يمنع من ظهور فروق ابداعية ضمن نطاق هذه الوحدة تجعل الفن الأموي فى سورية وفى الاندلس مختلفا عن الفن الفاطمي فى مصر او العباسي فى بغداد . ان هذه الفروق دليل حيوية وتطور الفن العربي تطورا ابداعيا منسجما مع الظروف العقائدية والجغرافية التي ينشأ فيها ، ولكنه يبقى محافظا على وحدته الداخلية والقومية .

عوامل تفكك وحدة اللغة والفن

نعوذ بعد الاطمئنان على وحدة اللغة والفن العربيين الى الاجابة عن الشق الثاني من السؤال وهو ما هي عوامل تفكك هذه الوحدة ، اي وحدة اللغة العربية والفن العربي ؟

امام جميع الجهود القومية التي تبذل لتحقيق وحدة سياسية تقوم على الايمان بوحدة الوجود العربي تظهر نزعات شعوبية او انفصالية او امية ، تنادي باسم الاصلاح او الثورة ، بتسليم مفاتيح اللغة والفن لاول ظافر فى معركة الابداع ، أو لاقوى لغة تفرض نفسها فى عالم المبادلات العقائدية والثقافية ، او لأسهل لهجة تفيد فى تقوية الاستقلال الاقليمي ولقد تجرأت بعض الدعوات الى تفضيل العامية على الفصحى أو تفضيل الحرف اللاتيني على العربي ، او الى استيراد الأساليب الفنية الحديثة .

ان جميع العوامل التي تؤدي الى اضعاف وحدة اللغة والفن او القضاء عليها ، هي دعوة الى تصفية شكل البنية العضوية للقومية العربية . والبديل الصحيح لهذه الدعوات هو تعزيز اللغة العربية واستصدار المعاجم الدقيقة لمختلف النشاطات الفكرية الحديثة ، وتوحيد المصطلحات المستحدثة ، وتسهيل الكتابة المطبعية وتعميم دراسة الخط العربي الجميل. واعادة النظر فى اسرار الفن العربي والعمل على تطويره ضمن نطاق وحدة شخصية واصالتها .
ان هذه الأعمال هي من صلب العمل الوحدوي الذي يسعى لتحقيق أهداف راسخة ، فأية وحدة سياسية لا تقوم الا على وحدة فكرية وتعبيرية متينة .